

عن فاجعة الفردوس المفقود : الفاجعة لا في أنه الفردوس الذي فقد ، بل في فقدان ذاته ، لفردوس كان أو لنار . في ١٩٥٠ و ١٩٦٠ لم يكن الجبن الذي صدني ، أخيراً ، عن الانتحار .

ولماذا لا أنتحر مرة واحدة ؟ ألم ... تكتشف ان في من (من ماذا ؟ أجل قلها : من النرطقة ، من الماسوكية ، من الانحراف ؟) ما يجعلني استمرى الانتحار التدريجي البطيء ، أتلذذ ، أنتمع به ، ارتسي عليه ارتماء الرضيع على الثدي باردة ، والمحب على خبيبة - أفعى ، فلا أود ان استعجل الشبع الكافي ، ولا اللذعة ، المرهقة - المريحة ، الحاسمة ؟

حاولت « كاي » العودة اليه ، لكنه قاومها رغم تهديدها له بالقتل أو التشويه . الا ان قلبه لم يسترجع سلامه . ففي القصيدة الثانية عشرة من « القصيدة ك » يتذكر كيف كان ولهان بحب « كاي » ومستعداً لاعطائها قلبه ثم يجدها تغدر به :

خليا كنت ، / بريئة ارضي . / أجئت تعيدين علي / ماساة بلادي ؟ / فتحت ، فتحت لك أعماقي / وأعطيتك الشط والتلال / وحملت التربة الحية بكف / نبشتها لك من الاتصاي / والماء بكف ، / وقلت لخضرة واحتيك اليوم / وخضرة ارضي غدا / وللهدارس والمعابد والمصحات / والزورق الذي جاء على زرقاة البحر / وكأنه جاء على زرقاة السماء . / لو عرفت لو عرفت ، / وكيف يعرف زارع الزيتون والمنب / ن القتال ، / كيف يعرف عاصر الزيت والنبذ / معنى للقتال ؟ / وأقصى أقصى ما علمتني الذكرى / جيشان يقتتلان بأرض ثالث / أو بلد يخرب الديار ويجلو / وينتقى بعده الدم وتشمخ المجاتي ، / ولم تعلمني عن بلد / يخرب ويعمر لذاته / ويجلي ولا يجلو .

يلاحظ في هذه القصيدة أن الوطن والحببية يندمجان مع اشتداد حبه . ان المستوطنين الصهيونيين في فلسطين الذين أعطوا الساحل والتلال ليطردوا في النهاية العرب الفلسطينيين ترسم صورتهم في وعي الشاعر عندما تصبح حبيبته امرأة غازية بعد أن فتح لها أعماق أعماقه . ان حبه لهذه المرأة هو في وعيه نقيض حبه لأمه : ان حب « كاي » مهلك اما حب أمه فهو دافق ، الاول جحيم والثاني نعيم . لقد ظن ان بإمكانه احلال احدهما محل الآخر ولكن كانت الفرصة قد فاتته عندما اكتشف انهما متصارعان وأنه هو حلبة الصراع .

ان هذه الافكار ومشاعر الشاعر الدينية تجاه الخطيئة ونفيه من وطنه واغترابه في المدنية الحديثة شكلت مادة أعظم قصائده وهي تلك التي نشرت تحت عنوان « القصيدة الاخيرة » في العدد العشرين من مجلة « شعر » في العام ١٩٦١ والتي نشرت منفصلة في كتاب في العام ١٩٦٣ بعنوان : « معلقة توفيق صايغ » .

يصور الشاعر بايجاز في هذه القصيدة تجربته في الحياة وذلك في أجزاء أربعة مثل حركات السيمفونية الاربع ويرى في مكان آخر من القصيدة في أمه و K مريمين فيقول :

سيفا النار لا يتعبان / يترنحان ولا يهويان / من يد المريمين : / مريم الاحزان ومريم الاحزان ، / مريم الهدوء ومريم المنخب ، / مريم الغرس والعناية / وميناء السلامة ومسح الجبين / ومريم المطرقة والغاس / ويذر البثور / والاظفار تفرز في الحبيب قبل الغريم / والذات قبل الحبيب ، / مريم البذل والوقاية / ومريم تطلب كل يوم ضحية ، / مريم القلب ومريم الجسد ، / مريم الاحزان ومريم الاحزان ، / مريم الحب ومريم الحب ، / مريمين ، مريم .

وبعد صلب الحب هذا يشطح الشاعر « جثته » من مكان لمكان متمتما صلوات قدسيتهما ليقول في النهاية :

وارفع يدي / وقلبي ونفي : / « أعني . أعني » .

انه يسعى وراء عون يسوع لانه بحاجة اليه ، فهو معلق بين الحياة والموت .

الخاتمة : وننتقل الى موضوع الله عند توفيق لنجده معرّفًا حسب الظرف فهو يسوع